مكانة الزوايا ودورها الرائد في الحفاظ على مبادئ الهوية الوطنية ـزاوية سيدي محمد بن عمر بندرومة أنموذجاـ

The position of the Zawayas and its leading role in maintaining principles of National Identity

Zawaya Sidi Mohamed bin Omar in Nadroma as a model-

بزاوية مختار*
جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، (الجزائر)
mokhtar.bezzaouya@univ-mascara.dz

لوسرة محمد
جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، (الجزائر)
lousramohamed@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/08/15 تاريخ القبول للنشر: 2022/01/18 تاريخ النشر: 2022/07/22

ملخص

كان للزوايا في الجزائر الفضل الأكبر في المحافظة على الهويّة الجزائرية ممثلة في اللغة العربية والدين الإسلامي والانتماء الوطني طيلة فترة الاستعمار الفرنسي وبعده، وقد دعت

* المؤلف المراسل.

أتباعها إلى الجهاد ضد هذا المستعمر، وشكّلت آنذاك مراكز تعبئة ضد الغزاة المعتدين. ثم تطورت الزاويا مع مرور الوقت وأصبحت أمكنة روحانية وصروحا دينية تربي الأجيال وتنجب الصالحين. وفي هذا البحث اخترت أنموذجا لأعرف به وهو زاوية سيدي محمد بن عمر من ولاية تلمسان، أين توجد زاوية العلم والمعرفة والروحانيات والإحسان التي كانت وما تزال منارة تضيء دروب سالكيها، وتبث فيمن حولها مبادئ العربية والإسلام والوطنية.

– الكلمات المفتاحية: الزوايا، الهويّة، الوطنية، الإسلام، سيدي محمد بن عمر.

Abstract:

Zawayas in Algeria had the greatest credit for preserving the Algerian identity represented in the Arabic language, the Islamic religion and national affiliation during and after the French colonial period. It contributed to the jihad against the colonizer, and then developed with the passage of time and became spiritual places and religious monuments that contribute to the education of generations.

This research deals with the angle of Sidi Mohamed Ben Omar from the wilaya of Tlemcen, which contributes to preserving the principles of Arabic, Islam and patriotism.

key words: Zawayas; identity; patriotism; Islam; Sidi Muhammad Ibn Omar.

مقدمة

لا يخفى علينا ما قامت به الزوايا من أعمال جليلة إلى يومنا هذا، من التربية الروحية لمريديها ومحيطها، وتعليم اللغة العربية والعلوم المتعلقة بها، والدعوة إلى الجهاد للحفاظ على

الوطن من الغزاة والأعداء. ونحن اليوم في أمس الحاجة للتعريف بهذا الموروث الحضاري الذي ساهم بشكل كبير في الحفاظ على أسس ومبادئ الهوية الوطنية وما يزال، فقوافل المتخرجين من الزوايا من حفظة القرآن الكريم والعلوم الشرعية والمتأدبين بأخلاق الصوفية تشهد بذلك، حيث يشكل هؤلاء لبنة لبناء مجتمع سوي يحافظ على هويته ومبادئه، ويضمن استقرار المجتمع، والتصدي للغزاة والمعتدين.

ولكن الإشكالية المطروحة هنا في هذا المقام، لماذا يشكك الكثيرون في دورها الديني والاجتماعي وما تقدمه من خدمات جليلة للفرد والمجتمع والأمة؟ وهل ذلك متعلق بولوجها إلى العملية السياسية ومباركتها للحاكم في فترة من الفترات؟ أم أنها شهدت عبر التاريخ سقطات وهفوات جعلتها ترتمي في أحضان المستعمر أحيانا وتبارك وجوده على تراب هذه الأرض المباركة؟ وهل يمكن تعميم الحكم من خلال أفعال بعض الشواذ والمنتسبين؟ وهل صحيح ما اتهمت به الزوايا من البدعة والخرافة والشركيات؟

تلك أسئلة حاولنا الإجابة عنها تلميحا أو تصريحا في هذا البحث، ولكن نلفت انتباه القارئ أنّ لكل فرقة أدعياء قد يتلبسون بلَبوسهم وليسوا منهم. لذا أردنا أن نجلّي الضباب عن عيون القارئ والمستمع، ليرى بعين الحق والبصيرة أن هذه ادعاءات لا أساس لها من الصحة، وأننا أقمنا الدليل القاطع على صدق ما نقول، وأن الزوايا منارات علمية صوفية، ساهمت وما تزال في ترسيخ مبادئ الهوية الوطنية، من خلال النموذج الذي اخترناه وهو "زاوية سيدي محمد بن عمر" بندرومة، بولاية تلمسان.

وأما أهداف البحث فكانت في التعريف بدور الزوايا الرائد في ترسيخ مبادئ الهوية الوطنية: الإسلام والعربية والدين الإسلامي. والتعريف أيضا بزاوية سيدي محمد بن عمر بندرومة، بولاية تلمسان، وما قدمته من خدمات جليلة في التربية، والتعليم، والإحسان،

والجهاد ضد المستعمر.

وقد اعتمدنا في هذا البحث على المنهجين التاريخي والوصفي، أما التاريخي فيتعلق بتفاصيل الزاوية ونشأتها وأهم شيوخها وما قدمته من أعمال رسخت الهوية والوطنية، وأما الوصفي فيتعلق بالحديث عن بعض المفاهيم الخاصة بموضوعنا كالطريقة والزاوية وأنواع الزوايا...

ولسنا ندعي السبق في طرق هذا الموضوع ولكن سبقنا إليه عدد كبير من الباحثين، فالموضوع العام للمقال وهو دور الزوايا في الحفاظ على الهوية الوطنية فإن التآليف والبحوث والدراسات الأكاديمية والمقالات فيه أكثر من أن تحصى، أما الموضوع الخاص بنموذج الدراسة وهو "زاوية سيدي محمد بن عمر" بندرومة فسجلنا بعض الدراسات وإن اختلفت وجهة الدراسة في كل منها، ونذكر منها:

1- إبراهيم عمار قدور، زاوية سيدي محمد بن عمر، تاريخها ونشأتها، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1997.

2- الزين محمد العمارة الدينية الإسلامية في منطقة ندرومة، من خلال نموذجين الجامع الكبير وزاوية سيدي محمد بن عمر، مذكرة ماجستير، تخصص ثقافة شعبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2003.

3- ترجمة شيخ الزاوية الطيبية "سيدي بن عمر" ندرومة، موقع مدونة سيدي بن عزوز:

https://albordj.blogspot.com/2010/10/blog-post_29.html

واخترنا لهذا كله الخطة التالية: كان المبحث الأول لإزالة بعض الغموض حول بعض المفاهيم الخاصة بالزاوية والطريقة وغيرها، كما عرفنا فيه بالزوايا وأنواعها، أما المبحث الثاني فخصصناه للتعريف بزاوية سيدي محمد بن عمر نموذج الدراسة، وأما المبحث الثالث والأخير فكان لجهود الزاوية في الحفاظ على مبادئ الهوية الوطنية، وتحت كل ملحق مجموعة من المطالب تخدم المبحث وتفصل بيان ما يحتاج التوضيح. والله الموفق وهو من وراء القصد.

مقدّمة:

يعتبر الدين اللبنة الأساسية في تكوين الأطر والأنظمة الاجتماعية سواء أكانت بدائية أم تقليدية. والدين قديم قدم الإنسان، مما يوحي بأن حاجة الفرد إليه ملحة عبر الأزمنة التاريخية المختلفة، حيث أدرك هذا المخلوق عجزه المادي، فلجأ إلى الجانب الروحي، ليُخلّص عقله من كثرة التجريد، وليتمكّن من خلق معادلة موضوعية بين النفس والمادة، والمحافظة على التوازن النفسي، وعلى التفاعل مع الآخرين[1].

وإذا بحثنا عن تعريف للدّين، فإنه في اللغة يعني الطاعة والخضوع[2]، وفي الاصطلاح "وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى اتباع الرسل"[3]، والملاحظ أنّ للدّين جانبين، جانب ظاهري تمثله مجموعة من الطقوس والشعائر والممارسات، وجانب باطني تمثله تلك النزعة الروحية التي تربط الإنسان بخالقه.

ويؤكّد "منعم جاد الله" هذه العلاقة حيث يقول: «الدين ليس إيمانا ومعرفة فحسب؛ بل هو فوق ذلك التفاف روحي متبادل وهو رباط من الطاعة والولاء ومن الرعاية بين المتدين وبين الحقيقة العليا التي يؤمن لها، والتي يجوز أن يطلق عليها "التجربة الدينية" التي

تشمل الجانب الداخلي الباطني لعلاقة الإنسان بالله وتفكره فيه وتوجهه إليه»[4].

وقد كان المتصوفة أوّل الممارسين لهذه التجربة الدينية في التاريخ الإسلامي، حتى أصبحت تنعت بالتجربة الصوفية التي نالت مساحة واسعة من الدراسة في جميع التخصصات من الفلسفة إلى علم الديانات، إلى علم النفس والاجتماع. ولا شك أن الزوايا ارتبطت بالتصوف، ومارست نشاطا تمثّل في التأطير الديني لمريديها ولمختلف الطبقات الاجتماعية الأخرى، سواء في التعليم، أو نقل الخبرة، أو تعويض السلوك السلبي بالإيجابي، وذلك من خلال السيطرة الباطنية، وأثر هذا التغيير على المستوى الفردي والجماعي، كما مسّ نشاطها ميادين أخرى كالاقتصادي والاجتماعي والسياسي وحتى الطبي[5].

ولنكونَ منصفين وجب علينا التعريف بهذه الصروح الدينية وهي الزوايا، وما قدمته من جهود جبارة في تربية النشء وبث روح التسامح والأخلاق السامية، والتعلق بالمولى عز وجل، وتحفيظ كتاب الله، وتعليم العلوم الشرعية، والخدمات الإنسانية للناس. وكثيرا ما كنت أسافر إلى ندرومة عبر المسلك الجبلي فأرى بأم عيني تلك الزاوية شامخة تسحر الألباب، ولما سمعت وقرأت عنها ازداد حبي في التعريف بها وبشيوخها ومآثرها، وهذا البحث يكشف ولو بإيجاز عما ذكرت.

المبحث الأول: تعريفات ومفاهيم

المطلب الأول: تعريف الطريقة:

الفرع الأول: لغة

الطريقة في اللغة هي السيرة، وطريقة الرجل: مذهبه، يقال: "ما زال فلان على طريقة واحدة أي على حالة واحدة، وفلان حسن الطريقة والطريقة الحال"[6].

الفرع الثاني: اصطلاحا

أما اصطلاحا: فالطريق بمعنى المسلك والسبيل عند الاستعمال، وإذا أضيفت إليها التاء أصبحت تعني جماعة لهم مذهب خاص، ويرد مصطلح الطريقة والطرق كوصف لجماعة المتصوفة فيما سلكوا من السبل، يقول ابن خلدون في حديثه عن التصوف والصوفية: «فظهر أنّ أصل طريقتهم كلها حاسبة النفس على الأفعال والتروك.. وكتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس...»[7].

المطلب الثاني: تعريف الزاوية:

الفرع الأول: لغة

ترد الزاوية في المعاجم اللغوية تحت مادة "انزوى"، بمعنى اختلى بنفسه وانعزل عن الآخرين[8].

الفرع الثاني: اصطلاحا

هي "مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة وهي بهذين الوصفين تشبه كثيرا الدور في العصور الوسطى لأن أصل الزاوية كانت تطلق على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو المصلى عند المسلمين، وقد ظهرت في المغرب حوالي القرن الثالث عشر مرادفا للرابطة، أي الصومعة التي يعتزل فيها الوليّ، ويعيش وسط تلاميذه ومريديه"[9]. وقد اعتبرت كذلك محطة للعابر والمقيم، فالأول يتخذها مسكنا مؤقتا أو مبيتا ثم يتابع مسيرته، والثاني لطلب العلم والذكر[10].

ويذهب بعضهم إلى أنّ أن الزاوية كانت في البداية تعني جزءا أو ركنا من المسجد يُخصَّص للعبادة لكنها مع مرور الوقت اتخذت شكلا جديدا في هيئة دورٍ تُقام للدراسات العلمية والدينية، وقد اتخذتها الصوفية مكانا لإقامة حلقات الذكر فيها[11]. كما تختلف

استعمالات لفظة –زاوية– من المشرق إلى المغرب، ففي المغرب ظل استعمال هذا الاسم مرتبطا "بالرباط"، يقول محمد حجي: «لم تظهر الزاوية في تاريخ المسلمين كمركز ديني وعلمي إلا بعد الرباط والرابطة لغة مصدر رابط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان، ويطلق في اصطلاح الفقهاء والصوفية على شيئين: أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد هجوم العدو، والثاني عبارة عن المكان الذي يلتقي فيه صالحوا المؤمنين لعبادة الله وذكره والتفقه في أمور الدين»[12]. أما في المشرق فتسمى خانقاة وهو لفظ أعجمي يجمع على خانقاهات أو خانقاوات أو خوانق[13].

المطلب الثالث: أنواع الزوايا:

بعد استقراء مجموعة من المصادر والمراجع الخاصة بهذا المجال نخلص إلى أنّ الزاوية لا تخرج عن ثلاثة أنواع[14]:

النّوع الأول: زوايا المرابطين

هي للطلبة ونشر العلم واستقبال الغرباء والبؤساء والمحرومين الذين يبحثون عن ملجأ أو هي مكان للزوار الذين يأتون لتقديم التبرعات والصدقات، كما أنّه ليس لها طريقة صوفية تتبعها، أو مريدون لهذه الطريقة، فالمرابطون فيها يعملون دون مقابل على الرغم من فقرهم واحتياجهم.

النّوع الثاني: زوايا الطرق الصوفية

وهي قد تكون زاوية الطريقة الأم أو فرع تابع لها، وهي ملكية خاصة ونظامها يشبه النظام الملكي الوراثي، حيث يكون الشيخ هو المشرف والمسؤول المباشر في كل شيء، والطريقة لها مريدون وأتباع هم الذين يقومون بتموين الزاوية. وفي حالة وفاة الشيخ

فالخلافة تكون عن طريق الوصاية التي يتركها الشيخ أو من تختاره عائلة الشيخ وفق شروط خاصة.

النّوع الثالث: الزوايا المنسوبة

هي زوايا منسوبة إلى شخص ميت تقدسه العامة وتحيي ذكراه وهو مدفون بالزاوية، وفي هذه الحالة تأتي العامة إلى هذه الزاوية زائرة وطالبة للبركة لا للعلم.

المبحث الثاني: التعريف بزاوية سيدي محمد بن عمر

المطلب الأول: الموقع الجغرافي

تقع الزاوية في منطقة معزولة من مناطق ندرومة تتميز بالوعورة وصعوبة المسالك، وتبعد عن مدينة تلمسان من الشمال الغربي بحوالي 46 كلم، وعن ندرومة بحوالي 12 كلم، وهي اليوم تابعة لبلدية عين الكبيرة الواقعة في الناحية الجنوبية من مركز الزاوية وبالتحديد في جبال فلاوسن. وتمتد القرية التي توجد بها الزاوية إلى شاطئ سيدي يوشع، ويُروى أنّ الشيخ سيدي محمد بن عمر أُهديت له دار للاستراحة والاستجمام من قِبل أحد المواطنين الأثرياء بعدما عالجه، وصُممت داخل هذه الدار قبة كمركز للزاوية[15].

الصورة 01: صورة ملتقطة من أعلى الطريق المار على الزاوية[16]

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

المطلب الثاني: مؤسس الزاوية ومشايخها

في غياب مصادر تأريخية لنشأة الزاوية، كانت الرواية الشفوية المنقولة عن طريق مشايخ الزاوية المصدر الوحيد، وهؤلاء يذكرون أنه تأسست سنة (**1104هـ/1690م**)، ويُذكر أنّ الزاوية ومسجدها التابع لها كان يمر بالقرب منهما نبع مائي مصدره أعلى الجبل، مما دفع مؤسِّسها الأول والشيوخ معه أن يُشيّدوا الزاوية في هذا المكان، ويتخذوه للعزلة والخلوة والانقطاع للعبادة، فأضحى المكان عامرا بالخير والثمار، وتحول إلى مركز إشعاع ديني وثقافي يتوافد إليه حفظة القرآن الكريم، وطلبة العلوم الشرعية، والمريدون، من القبائل المجاورة للزاوية، وغيرها[17].

ويرجع الفضل في تأسيس هذه الزاوية المباركة إلى الصوفي الجليل الشيخ سيدي داود الابن الحادي عشر لمؤسس مدينة فاس المولى إدريس الثاني، ولم يعثر لحدّ الآن على مصدر أو مرجع يؤرخ لميلاد أو وفاة الشيخ سيدي داود. ولعل ذلك يعود إلى تغافل أحفاده

عن تدوين تاريخه، وما يُعرف عنه أنه هاجر من مدينة فاس واستقر بجبال ترارة المعروفة بطابعها الصخري الصلب، ومكانها الموحش، ومسالكها الوعرة...فاختار الولي الصالح سيدي داود هذا المكان المنزوي رغبة في التدبر والتفكر والتجرد[18].

ويبدأ تاريخ الزاوية بوفاة الشيخ محمد بن عمر أول جدّ لهذه الأسرة الكريمة، وعُرف عن هذا الرجل أنّه كان صوفيا من أولياء الله، ودامت ولايته لهذه الزاوية حوالي سبعين سنة، وكان في هذه الفترة متمسكا بنهج أبيه الشيخ سيدي داود، وبعد وفاة محمد بن عمر، انتقلت المشيخة إلى ابنه الشيخ سيدي محمد الذي تولى القيام بشؤون الزاوية مدة ستين سنة، وكانت وفاته حوالي (**1161هـ/1748م**)[19].

ثم تولى بعدهما الشيخ الحاج محمد بن عمر ابن الشيخ سيدي محمد وحفيد الشيخ سيدي محمد بن عمر، ودامت مشيخته لهذه الزاوية مدة ستة وأربعين سنة وتوفي رحمه الله بمكة وبها دفن سنة (**1209هـ/1794م**)، وقبل مغادرته نحو البقاع المقدسة عيّن ابنه الحاج محمد العالم خليفة له على مشيخة الزاوية، وقد عاش الشيوخ الأوائل في العهد التركي، ويعتبر الشيخ محمد العالم حلقة وصل بين الشيوخ الذين عاشوا في عهد الأتراك والشيوخ الذين عاشوا في عهد الاحتلال الفرنسي[20].

وفي العام (**1209هـ/1794م**) تولى مشيخة الزواية الشيخ الحاج محمد العالم، ودامت مشيخته لزاوية سيدي بن عمر مدة تزيد على الثمانين سنة، وعرف هذا الرجل الصالح بحبه لطلب العلم، وهذا ما حفزه على السفر إلى مدينة "مازونة"، وقد تتلمذ بها على يد عالمها الشهير آنذاك الشيخ الحاج محمد بوراس الكبير، وتوفي رحمه الله سنة (**1293هـ/1876م**) مخلفا خمسة أولاد: المصطفى- المنور- عبد السلام- الدريوش- بن عبد الله[21].

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

وبعد هذه الفترة تولى شؤون الزاوية الشيوخ الذين عاشوا في عهد الاحتلال الفرنسي، وكان أولهم الشيخ سيدي المصطفى الذي خلَف والده على رأس الزاوية مدة ثلاثين سنة وتوفي رحمه الله سنة (**1324هـ/1906م**). ثم تولى المشيخة بعده الشيخ سيدي الدريوش خلفا لأخيه الشيخ ودامت مشيخته مدة أربعة عشر سنة، وعرف عن هذا الشيخ قدرته الفائقة في شفاء المرضى وحسن معاملته للناس غنيهم وفقيرهم، وتوفي سنة (**1339هـ/1920م**) وخلفه في القيام بشؤون الشيخ سيدي بن عمر ولد مصطفى، ودامت مشيخته للزاوية مدة اثنين وعشرين سنة، وتوفي رحمه الله سنة (**1361هـ/1942م**)[22].

وبعد وفاة الشيخ سيدي بن عمر ولد مصطفى تولى مشيخة الزاوية ابن أخيه سيدي علي ولد سيدي العربي ودامت مشيخته لزاوية سيدي بن عمر مدة سبع وعشرين سنة، حيث لعبت في عهده الزاوية دورا كبيرا في تحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الدينية، ومن فضائله فتحه باب الحج إلى بيت الله الحرام لأفراد هذه الأسرة الشريفة بعدما انقطعت مدة من الزمن، وأدى فريضة الحج مرتين بصحبة ابنه الأكبر الحاج أمحمد، وفي طريق رجوعهما من الحجة الثانية عرجا على بيت المقدس، كما لعب الشيخ سيدي علي دورا بارزا في الثورة التحريرية المباركة، وتمثل دوره في تموين المجاهدين الذين كانوا يعملون تحت قيادة عباس وبعثمان ورضوان والوهراني ونعناع، وتوفي رحمه الله سنة (**1389هـ/1969م**).

الشكل 1: مخطط لمشايخ الزاوية[23]

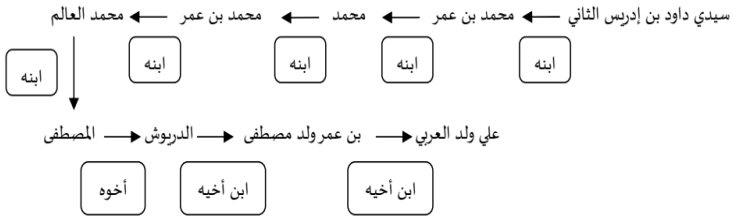

المطلب الثالث: المنهج الصوفي للزاوية

وأما المسلك الصوفي الذي نهجته الأسرة في بداية الأمر، فتشير المصادر من خلال الرواية الشفوية أنّ شيوخ زاوية سيدي محمد بن عمر ساروا على الطريقة القادرية المنسوبة إلى الولي الصالح مولاي عبد القادر الجيلاني المولود بقرية جيلان من بلاد فارس سنة (**470هـ/1077م**)، ثم انتقل إلى بغداد وتتلمذ على كبار شيوخها ومتصوفيها، فأصبح علما بارزا في الفقه والحديث والوعظ والإرشاد، وبهايوجد ضريحه المقصود من الزوار من كل حدب وصوب[24].

وتعتبر هذه الطريقة من أقدم الطرق الصوفية التي وجدت أرضية بكثرة لنشر التعاليم الجيلانية في الجزائر، بالخصوص في العهد العثماني حيث تردت الأوضاع الاجتماعية وعم الفساد الأخلاقي بين الطبقات الشعبية التي لم تجد إلا التصوف كمنهج للإصلاح وإعادة بناء أخلاق العامة[25]. وفي عام (**1027هـ/1618م**) نهجت أسرة سيدي بن عمر منهج دار الضمانة بوزان المغربية التي كان على رأس مشيختها مولاي عبد الله الشريف الوزاني، وهو منهج الطريقة الطيبية، وكانت هذه الطريقة خاضعة لسلاطين المغرب[26]. وهذا ما يؤكده شيوخ زاوية سيدي بن عمر بالتواتر.

المبحث الثالث: جهود الزاوية في الحفاظ على مبادئ الهوية الوطنية

المطلب الأول: تحفيظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

عنيت زاوية سيدي محمد بن عمر على غرار ما تقوم به كل الزوايا في أرجاء التراب الوطني، بالمحافظة على القرآن الكريم، بتحفيظه لأبناء المسلمين كتابة ورسما وتلاوة وتجويدا، حتى لا تمتد إليه يد التحريف والتغيير، ويتلى في الصباح والمساء، في المساجد والبيوت فرادى وجماعات[27]. أما تدريس الأحاديث النبوية وتفسير معناها، فهذا أمر يلزمه علماء المشايخ على الطلبة بحفظ الأحاديث النبوية، كما يتم تدريسهم السيرة النبوية من خلال كتب الموطأ للإمام مالك وصحيح الإمام البخاري وصحيح مسلم[28].

المطلب الثاني: تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية

وذلك بتعليم الطلبة دروس في علوم اللغة العربية من نحو وبلاغة وصرف وأدب، وأغلب هذه المواد تأتي عبارة عن منظومات شعرية، وقد استعملها المشايخ في مناهجهم التعليمية نظرا لسهولة حفظها لدى الطلبة بعدما سهل عليهم حفظ القرآن الكريم وأصبحت ذاكرتهم تحمل المزيد من العلم، ومن أهم هذه المدونات: متن الأجرومية وألفية ابن مالك في علم النحو، ولامية ابن مالك في التصريف.

وأما العلوم الدينية فذلك بتدريس قضايا الفقه في المتون التي تعتمدها الزوايا في العملية التعليمية، بحيث يقوم شيخ الزاوية بتقديم بمحاضرات عامة للطلبة وهيئة التدريس، ويخصص الأساتذة حصصا خاصة للتفصيل في هذه القضايا حسب المستويات التعليمية للطلبة، مثل: متن ابن عاشر، وهو في الغالب يفرضه مشايخ الزوايا ليحفظه الطلاب، ومتن الأخضري، والرسالة لأبي زيد القيرواني في فقه الإمام مالك، وغيرها من العلوم الأخرى.

أما مكتبة الزاوية فيصادف الزائر لها عناوين عديدة لكتب يُعرف من خلالها طبيعة التدريس في هذه الزاوية، وتتكرر النسخ للكتاب الواحد، ويدل هذا على عملية التدريس تتم بأن يأخذ كل طالب نسخة ويقرأ أحدهم على الشيخ ويستمع الشيخ والآخرون، فيعلق الشيخ ويحقق ويشرح، والطلبة يستمعون إلى شروحه، ويدونون الملاحظات الجديدة على المادة، وهي طريقة كانت متبعة في المدارس الدينية القديمة[29].

المطلب الثالث: التربية الروحية وترسيخ القيم

كانت الزاوية شأنها أغلب الزوايا في القطر الجزائري، مركزا للإشعاع الروحي والعلمي ومنبعا للهداية والفضيلة والأخلاق، وملاذا للهاربين والفارين من فتن الدنيا وشهواتها، وهي صاحبة الفضل في استمرار الأفكار الصوفية، والحفاظ على الإسلام والقرآن، وظلت المكان الذي يلتقي فيه المريدون بمشايخهم، لأخذ الأوراد وطرق الذكر. وهكذا استمال شيوخ الزاوية قلوب الناس إليهم لأنهم رجال أتقياء من جهة، وعلماء ومفكرون من جهة أخرى، فكانوا موضع احترام وإجلال بما يقدمونه من نصح وإرشاد وطمأنة للقلوب وغذاء للأرواح[30].

ومن الوقائع التي تُروى –وكان الشيوخ سببا في تهدئة نفوس الناس وإذهاب الذعر والقلق عنهم– أنّ الشيخ سيدي بن عمر ولد مصطفى –الذي عُرف بتقواه وصلاحه ومداومته على الأوراد وقراءة القرآن الكريم ليلا– نزل عنده بالزاوية جماعة من سكان مدينة الغزوات الساحلية، فقصدوا الشيخ وهم في حالة من القلق والذعر، ليعبروا له عما لحق بمدينتهم من جراء القصف الجوي من المستدمر الفرنسي، فطلب منهم الشيخ وضع حواجز رملية فوق سطوح منازلهم حتى يتمكنوا من تجنب الحرائق الناجمة عن القذائف،

التي كانت تطلقها الطائرات الحربية، واستطاع بذلك أن يُهدِّئ من روعهم ويعيد الثقة إلى نفوسهم، مؤكدا أن العدو الفرنسي لا يستطيع تدمير أراضيهم والإقامة بها[31].

المطلب الرابع: البر والإحسان

حسب الرواية الشفوية فإن الزاوية توفّر المبيت والمأكل والمشرب، بالنسبة لطلبة العلم وللمدرسين الذين كان يقدمون من خارج المنطقة، وكانت الزاوية توفر للفقراء والمحتاجين أوقات القحط ما يملأ الأفواه والبطون ولو كان قليلا، وهنا يتدخل مفهوم البركة"، وكانت الزاوية المكان الوحيد الذي لا تنفد فيها هذه البركة. والزاوية توفر كل شروط الراحة من الإطعام والإيواء للأتباع المريدين أثناء زيارة الزاوية خلال فترات متقطعة من السنة، أو بمناسبة الموالد، باعتبارها "دار الضيوف".

المطلب الخامس: المشاركة في الجهاد ضد المستعمر

لعبت الزوايا أثناء الاستعمار الفرنسي دورا بارزا، فقد كانت المصدر الرئيسي الذي يموّن الثورة بالمجاهدين، ففي بعض الزوايا التحق جل أعضائها بالجهاد، بحيث كانت مركزا استراتيجيا لذلك. فالزوايا على اختلاف طرقها كلها كانت تصب في وعاء واحد وهو الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية. والثورات المناهضة للاستعمار الفرنسي، ابتداء من ثورة الأمير عبد القادر وانتفاضة الشيخ بوبغلة وثورة الشيخ بوعمامة وغيرها، لخير دليل على إسهام الزوايا في هذا العمل الوطني الجبار، الذي مهد الطريق لانطلاق ثورة التحرير في الفاتح نوفمبر 1954م[32].

وهذا ما يصرح به مارسيل سيميان قائلا: «إن تلك المؤسسات الدينية غالبا ما تتحول إلى معقل الثورة ضد الأجنبي وضد الرومي المدنس لأرض الإسلام...وإنّ الزاوية

لم تعد مكانا لتعليم القرآن الكريم فقط، بل أصبحت معلما للجهاد ترسم في ظلام أركانها مخططات الانتفاضات والثورات»[33].

وهذا بالفعل ما كانت زاوية "سيدي محمد بن عمر" تقوم به من نصرة المجاهدين ومساندتهم، هذا وقد اتهمت السلطات الاستعمارية الفرنسية الشيخ سيدي محمد العالم بالتواطؤ مع قبيلة بني يزناسن المغربية الثائرة ضد الحكم الفرنسي، وبتموين ثورة الأمير عبد القادر، فأبعدته إلى مدينة قسنطينة، وقضى في السجن سنتين كاملتين، ثمّ أفرج عنه بعد ذلك وعاد إلى الزاوية[34].

وباعتراف من الفرنسيين أنفسهم فقد اكتشفوا أن وجود الزاوية كمركز أساسي يؤوي المقاومة ولاسيما المقاومة الثقافية، لأن المقاومة المسلحة ذات طبيعة سياسية ثم إنها مؤقتة. أما المقاومة النفسية فدائمة بل هي حرب نفسية حقيقية ابتكرتها الزاوية، ورفضت كل ما هو أجنبي وحافظت على العادات والتقاليد الجزائرية، يقول محمد نسيب في هذا الشأن: «إنّ طالب الزاوية كان يتمسك بدينه، ويتعلق بشخصيته ويعتز بثقافته العربية الإسلامية، في الوقت الذي كان الناس فيها يتهافتون فيه على اللغة الفرنسية، لغة الخبز المغموس في دماء الضحايا المذبوحين»[35].

وقد استمرت زاوية سيدي محمد بن عمر في متابعة طريقها بعد الاستقلال في التعليم القرآني وتحفيظ وتعليم المواد الشرعية للطلاب الذين لا يذهبون إلى المدارس الرسمية في أوقات خاصة. فبالإضافة إلى دورها التربوي يبقى دورها الاجتماعي قائما إلى اليوم، حيث تقوم بفض النزاعات المستعصية بين المواطنين، وتقديم العلاج للمرضى خاصة مرض "عرق النسا"، وتحتفظ الزاوية بقدسيتها ومكانتها بين الناس، حيث تقوم بالحفاظ على الموروث الثقافي والطابع الخيري.

- **كلمة حقّ وإنصاف:**

يقول صلاح مؤيد العقبي: «كانت الزوايا بتعاليمها القرآنية حصنا للشخصية الوطنية، ومدرسة حافظت قدر الإمكان على قِيَم الشعب الجزائري وأفكاره وأصالته، وقاومت الوجود الاستعماري بتعليمها العربي الإسلامي، رغم غلبة الدروشة على بعضها ومهادنتها الاستعمار. وكانت الزوايا تعمل في صمت وخفاء تُعد الجيل القرآني داخل تلك القلاع المغلقة. وفي تلك الزوايا المنعزلة في الجبال والأرياف الهادئة البعيدة عن الضوضاء والصخب، كان أبناء الجزائر يحفظون القرآن الكريم ويتعلمون دينهم ولغتهم وشريعتهم، على شيوخ دستورهم القرآن وهديهم الإسلام»[36].

ويقول أيضا: «فللزوايا رسالة سامية، ومهمة نبيلة، وعمل شريف، تمثلت في المحافظة على الإسلام والعربية في هذه الديار، والحرص على صيانة عقيدة المسلم وحمايتها من الزيغ والانحراف بواسطة نشر الوعي الديني في أوساط الجماهير في المدن والقرى والجبال، والتركيز على تعليم القرآن الكريم وتحفيظه، والعناية بدراسة العلوم الإسلامية واللغوية، بالإضافة إلى ما تقوم به من خدمات اجتماعية كإطعام الفقراء والمساكين وابن السبيل، ومساعدة المحتاجين، وإصلاح ذات البين، وغيرها من الخدمات المختلفة»[37].

واعترافا بجميل الزوايا ودورها الفعال تربويا واجتماعيا يقول محمد نسيب: « إنّ ما قامت به الزوايا من أدوار اجتماعية وتربوية في أيام الاستعمار القاسية ولياليه الحالكة، وما قامت به من أعمال البر والإحسان والتربية والتعليم، مما أغلق الأبواب في وجه المبشرين الذين يترصدون الفُرص للوصول إلى أغراضهم باسم التعليم والتطبيب والإحسان، ولكن الزوايا أنقذت الفقراء والمحتاجين والأميين من أبناء المسلمين من اللجوء إلى مراكز

المبشرين، وأطعمت الجائعين وآوت العجزة وعلمت الأميين، وجعلت التعليم مجانا لكل الناس للصغار والكبار للفقراء والأغنياء، لا فرق بين ذا وذاك، ونمّت روح المحبة والتعاون بين أبناء الأمة »[38].

خاتمة:

خلُص هذا البحث إلى النتائج التالية:

1- الزوايا في الجزائر عموما لا تخرج عن ثلاثة أنواع: زوايا المرابطين، زوايا الطرق الصوفية، والزوايا المنسوبة لولي صالح.

2- زاوية سيدي محمد بن عمر بندرومة إحدى الزوايا المعروفة في المنطقة ذات جذور أصيلة، تضطلع بمهام جليلة. ومؤسس هذه الزاوية هو الصوفي الجليل مولانا الشيخ سيدي داود الابن الحادي عشر لمؤسس مدينة فاس المولى إدريس الثاني، وقد تعاقب أبناؤه من ذريته على خلافته على هذه الزاوية المباركة.

3- انتهجت الزاوية في بادئ أمرها الطريقة القادرية ومؤسسها سيدي عبد القادر الجيلاني، ثم تحولت إلى الطريقة الطيبية ومؤسسها مولاي عبد الله الشريف الوزاني.

4- كان للزاوية الطيبية، زاوية "سيدي محمد بن عمر" جهود كبيرة في الحفاظ على مقومات الهوية والشخصية الوطنية، وذلك بـ:

- ✓ تحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف والعلوم الشرعية.
- ✓ تعليم اللغة العربية والعلوم المتعلقة بها.

- ✓ التربية الروحية وإرساء قيم الأخوة والمحبة والتكافل الاجتماعي.
- ✓ تقديم يد العون للمجاهدين في كفاحهم ضد المستدمر الفرنسي.
- ✓ تقديم المساعدات للفقراء والمحتاجين بإيوائهم وحسن ضيافتهم.
- ✓ مواصلة الدور التعليمي والاجتماعي بعد الاستقلال.
- ✓ تقديم العلاج للمرضى فيما يخص مرض "عرق النسا".

الهوامش:

[1] الزوايا في الغرب الجزائري، التيجانية والعلوية والقادرية: بن لباد الغالي، أطروحة دكتوراه، الثقافة الشعبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، 2008-2009، ص01.

[2] لسان العرب: ابن منظور، بيروت، دار صادر، ط1، (دت)، مادة "دين"، ج13، ص167.

[3] معجم التعريفات: الشريف الجرجاني، تحقيق محمد الصديق المنشاوي، القاهرة، دار الفضيلة، ط1، (دت)، ص92.

[4] التصوف في مصر والمغرب: منال عبد المنعم جاد الله، الإسكندرية، مصر، نشأة المعارف، (دط)، (دت)، ص84.

[5] الزوايا في الغرب الجزائري، التيجانية والعلوية والقادرية: بن لباد الغالي، ص03-05.

[6] لسان العرب: ابن منظور، مادة "طرق"، ج10، ص220.

[7] المقدمة: عبد الرحمن بن خلدون، تونس الدار التونسية للنشر، (دط)، 1984، ص585-586.

[8] لسان العرب: ابن منظور، مادة "زوي"، ج14، ص364.

[9] موجز دائرة المعارف الإسلامية: أ.جي. بريل، إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، الإمارات العربية المتحدة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط1، 1998، ج14، ص5240.

[10] المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا – الزاوية الناصرية –: محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري، دراسة وتحقيق عبد المجيد خيالي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2003، ص31.

[11] المذاهب الصوفية ومدارسها: عبد الحكيم عبد الغني قاسم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط2، 1999، ص132.

[12] الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي: حجي محمد، الدار البيضاء، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، ط3، 1988، 23.

[13] المرجع نفسه، ص25.

[14] ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الاسلامي، ط1، 1998، ج02، ص26-27. وزوايا العلم والقرآن بالجزائر: نسيب محمد، الجزائر، دار الفكر، (دط)، 1998، ص30. ودور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري: جاب الله طيب، مجلة معارف، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، البويرة، السنة 08، العدد14، 2013، ص139.

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

[15] العمارة الدينية الإسلامية في منطقة ندرومة، من خلال نموذجين الجامع الكبير وزاوية سيدي محمد بن عمر: الزين محمد، مذكرة ماجستير، تخصص ثقافة شعبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2003، ص73.

[16] موقع مدونة سيدي بن عزوز، الرابط:

https://albordj.blogspot.com/2010/10/blog-post_29.html

تم التصفح يوم: 2021/07/10.

[17] العمارة الدينية الإسلامية في منطقة ندرومة، الزين محمد، ص74.

[18] موقع مدونة سيدي بن عزوز، الرابط:

https://albordj.blogspot.com/2010/10/blog-post_29.html

تم التصفح يوم: 2021/07/10.

[19] المرجع نفسه.

[20] ينظر: موقع مدونة سيدي بن عزوز، الرابط:

https://albordj.blogspot.com/2010/10/blog-post_29.html

تم التصفح يوم: 2021/07/10.

[21] المرجع نفسه.

[22] ينظر: موقع مدونة سيدي بن عزوز، الرابط:

https://albordj.blogspot.com/2010/10/blog-post_29.html

تم التصفح يوم: 2021/07/10.

[23] العمارة الدينية الإسلامية في منطقة ندرومة: الزين محمد، ص76-82.

[24] الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر تاريخها ونشاطها: صلاح المؤيد العقبي، لبنان، دار البراق، ط1، (دت)، ص143.

[25] الزوايا في الغرب الجزائري: بن لباد الغالي، ص56.

[26] جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر: أحمد الخطيب، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، (دط)، 1985، ص58.

[27] دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري: جاب الله طيب، ص142.

[28] دور علماء الزوايا والكتاتيب القرآنية في تعليم العلوم العربية بمنطقة الونشريس، زاوية سيدي علي الحاج العداوية الشاذلية نموذجا: فتوح محمد، مجلة التعليمية، المجلد5، العدد14، 2018، ص383.

[29] زاوية سيدي محمد بن عمر، تاريخها ونشأتها: إبراهيم عمار قدور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1997، ص108.

[30] الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر، التحول من الديني إلى الدنيوي ومن القدسي إلى السياسي: العماري الطيب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 15، 2014، ص123-124.

[31] ينظر: موقع مدونة سيدي بن عزوز، الرابط:

https://albordj.blogspot.com/2010/10/blog-post_29.html

تم التصفح يوم: 2021/07/10.

[32] دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري: جاب الله طيب: ص142-144.

[33] les conferies islamiques en algerie: Marcel simian , alger, A ,jourdan ,1910, p41.

[34] ينظر: موقع مدونة سيدي بن عزوز، الرابط:

https://albordj.blogspot.com/2010/10/blog-post_29.html

تم التصفح يوم: 2021/07/10.

[35] زوايا العلم والقرآن بالجزائر: نسيب محمد، ص25.

[36] الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر: صلاح المؤيد العقبي، ص299.

[37] المرجع نفسه، ص300-301.

[38] زوايا العلم والقرآن بالجزائر: نسيب محمد، ص24.